إن استنزال سلام النفوس من قيصر كما لو كان المسيح كان مهيناً حقاً بعض الشيء ، ولكن هذا التملق كان محسوباً ومدبراً خير تدبير . وسجد الجميع وبقي القيصر وحده منتصب القامة كما لو أنه كان يتمتع بتمثيله للسلطة المطلقة ، وهم لم يتوسلوا إليه من أجل أن يعود لتسلم سلطته الزمنية على الأجساد والأرزاق فحسب وإنما أن يتسلط ضمناً على النفوس أيضاً حتى ولو أوردها مورد اللعنة والهلاك . ووعظهم إيڤان طويلاً ، ولكن هذه الموعظة لم تكن إلا تمهيداً كلامياً لإعلان حقيقة نواياه .

« ومع ذلك فإنني بدافع من محبتي للأب اثناسيوس ولكم وللأساقفة والمطارنة الحجاج اوافق على العودة إلى العرش ولكن على شرط أن أكون حراً في إعدام الخونة بمحض إرادتي وأن أعاقب — رغم استيائي — حتى بعقوبة الموت والسجن ومصادرة الأملاك دون أن أتعرض لحرمان الكنيسة او نواياها السيئة » . هذا ماقاله إيڤان للمستعطفين .

واستقبل المستعطفون هذا الكلام بدموع الفرح . « افعل بنا ما تشاء، ولكن عد إلينا ! » وأبدى إيڤان إعجابه بخضوعهم وطلب من معظمهم وهو يبتسم أن يبقوا ليحتلفوا معه بعيد الفطاس في الكسندروف .

* * *